أثر الفكر الإسلامي في تشكيل الذهنية العلمية

الدكتور
صدام حسين كاظم المفرجي
تدريسي في كلية العلوم الإسلامية
قسم الحديث وعلومه

Dr. Saddam Hussein Kadhim

Research Summary

Islamic thought has contributed to the formation of the Islamic mentality، which appeared to fruition evident since the beginning of the call، and was the generations of creators who have contributed to making the glorious history of this nation.

Islamic education mechanisms have been successful in achieving the desired goals، including over hundreds of years، and when he replaced eras of decadence and backwardness signs questioning the ability of these mechanisms to achieve success and scientific mental decline، or inability to keep up with the times appeared، standing in front of Nada modern means.

They dwell in the statement of the reasons for deficiencies، and made them all its mark، and the command to follow the modern Western approaches to the teaching of the various sciences، and remained forensic science even while tracking traditional means before you follow are other modern means، but in the lesson own loops، which has been the province of the means old.

And a desire to great effect for Islamic Thought in capacity development statement، whether individual or collective was marked this research (the impact of Islamic thought in the formation of the scientific mind).

الملخص

قد أسهم الفكر الإسلامي في تشكيل العقلية الإسلامية، والتي ظهرت ثمارها جليّة واضحة منذ بدايات الدعوة، وتمثلت في أجيال المبدعين الذين أسهموا في صنع التاريخ المجيد لهذه الأمة.

وقد نجحت آليات التعليم الإسلامي في تحقيق الأهداف المنشودة منها عبر مئات السنين، فلما حلت عصور الانحطاط والتخلف ظهرت بوادر التشكيك بقدرة هذه الآليات على تحقيق النجاح وتراجع الذهنية العلمية، أو عدم قدرتها على مواكبة العصر، والوقوف نداً أمام الوسائل الحديثة.

وأسهب الباحثون في بيان أسباب القصور، وأدلى كلّ منهم بدلوه، وآل الأمر إلى اتباع المناهج الغربية الحديثة في تدريس العلوم المختلفة، وظلت العلوم الشرعية حتى حين تتبع الوسائل التقليدية قبل أن تتبع هي الأخرى الوسائل الحديثة، إلا في حلقات الدرس الخاصة التي ظلت محافظة على الوسائل القديمة.

ورغبة في بيان الأثر الكبير للفكر الإسلامي في تطوير القدرات سواء أكانت فردية أم جماعية كان هذا البحث الموسوم (أثر الفكر الإسلامي في تشكيل الذهنية العلمية).

العدد
العاشر
٢٠١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الأول الآخر، الناصر القاهر، الذي جعل العقل أرجح الذخائر، والعلم أشرف المفاخر، وطلبه أكرم المآثر، ووسم بالفضل مداد المحابر، وتزينت بمسامعه المحاريب والمنابر.

وصلى الله على سيد الأولين والآخرين، محمد الرسول الأمين ﷺ وعلى آله الطاهرين، وصحبه الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أسهم الفكر الإسلامي في تشكيل العقلية الإسلامية، والتي ظهرت ثمارها جليّة واضحة منذ بدايات الدعوة، وتمثلت في أجيال المبدعين الذين أسهموا في صنع التاريخ المجيد لهذه الأمة.

وقد نجحت آليات التعليم الإسلامي في تحقيق الأهداف المنشودة منها عبر مئات السنين، فلما حلت عصور الانحطاط الفكري والتخلف ظهرت بوادر التشكيك بقدرة هذه الآليات على تحقيق النجاح وتراجع الذهنية العلمية، أو عدم قدرتها على مواكبة العصر، والوقوف نداً أمام الوسائل الحديثة.

وأسهب الباحثون في بيان أسباب القصور، وأدلى كلّ منهم بدلوه، وآل الأمر إلى اتباع المناهج الغربية الحديثة في تدريس العلوم المختلفة، وظلت العلوم الشرعية حتى حين تتبع الوسائل التقليدية قبل أن تتبع هي الأخرى الوسائل الحديثة، إلا في حلقات الدرس الخاصة التي ظلت محافظة على الوسائل القديمة.

ورغبة في بيان الأثر الكبير للفكر الإسلامي في تطوير القدرات سواء أكانت فردية أم جماعية كان هذا البحث الموسوم (أثر الفكر الإسلامي في تشكيل الذهنية العلمية).

أولاً ـ مشكلة البحث:

١ . الوقوف على الأسباب التي أدت إلى قصور الذهنية العلمية، وعجزها عن مواكبة المستجدات، أو عجزها عن تلبية الحاجة من الأغراض التعليمية.

٢ . بيان قدرة الفكر الإسلامي في تشخيص مكامن الخلل، وقدرته على وضع المعالجات العلمية الصحيحة الرصينة وتشكيل الذهنية العلمية على خلاف الدعاوى التي تدعي خلاف ذلك.

ثانياً ـ أهداف البحث:

إن أي جهد علمي لا بد أن ينطلق من قاعدة فكرية تؤطر أسسه ومنطلقاته، والنشاط العلمي الإسلامي لا يعاني من معضلة في هذا الخصوص ما دامت قواعده مؤسسة على أصول فكرية إسلامية رصينة.

والبحث يسعى إلى إثبات قدرة هذا الفكر على التشخيص والعلاج والتطوير، وإمكانيته على تشكيل الذهنية العلمية المشبعة بالروح الإسلامية في الميادين العلمية كافة.

وبالنظر لسعة الموضوع وتشعبه، فسيجري التركيز على أحد أهم الفعاليات العلمية الممثلة بالتعليم، إذ إن التعليم أهم وسائل تشكيل الذهنية العلمية، فصلاح هذا الوسط يبشر بصلاح المجتمع، إذ إن العلاقة بين التعليم وبين التطور الاجتماعي علاقة وشيجة مترابطة لا يمكن فصم عراها.

ثالثاً ـ خطة البحث:

اشتمل هذا البحث بعد هذه المقدمة على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أسباب قصور الذهنية العلمية.

المبحث الثاني: قدرة الفكر الإسلامي على العلاج.

المبحث الثالث: معالجات مقترحة لتشكيل الذهنية العلمية.

الخاتمة: التي تضمنت أهم النتائج والتوصيات.

والله اسأل أن يوفقنا لما فيه خير هذه الأمة، إنه سميع مجيب الدعاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد

وعلى آل وصحبه

أجمعين

المبحث الأول
أسباب قصور الذهنية العلمية

أشرت في مقدمة البحث إلى أن الباحثين اختلفوا في تشخيص أسباب التراجع في العلمية التعليمية، وملخص هذه الأقوال:

القول الأول: إن الخلل كامن في وسائل التعليم، إذ إن طرائق التعليم قديمة بالية لا تواكب متطلبات العصر، ولا تواكب طرائق التعليم المتبعة في المعارف الأخرى التي أثبتت نجاحها، فهي تركز في الغالب على الحفظ الببغاوي من دون التركيز على استيعاب المادة، وهذا المنهج لم يعد ميسوراً بسبب كثرة المناهج الدراسية التي يكلف الطالب بها، فضلاً عن تزايد المشاغل الاجتماعية، وكثرة وسائل اللهو أو الترفيه التي لم تكن متاحة من قبل.

ويعترض أصحاب هذا الاتجاه بأن وسائل الحفظ والإلقاء والتلقين والاستظهار هي الطاغية في وسائل التعليم في البلاد العربية، وأن قدرات الطلبة تقاس بمدى القدرة على الحفظ أو الاستظهار[1].

وقد يبالغ بعض أصحاب هذا الاتجاه إلى الدعوة بتقليص الحفظ إلى أقصى الحدود أسوة بالغرب في ضد شيوع ظاهرة الحفاظ والتلقين[2].

وخير الأمور أوساطها، لذلك فالمزج بين الأمرين هو الصحيح الذي ينبغي التعويل عليه.

ومن أوائل من حذر من الحفاظ المجرد عن الفهم ابن عبد البر الذي قال: " اعلم رحمك الله، أن طلب العلم في زماننا هذا، وفي بلدنا قد حاد أهله عن طريق سلفهم، وسلكوا في ذلك ما لم يعرفه أئمتهم، وابتدعوا في ذلك ما بان به جهلهم وتقصيرهم عن مراتب العلماء قبلهم، فطائفة منهم تروي الحديث وتسمعه، قد رضيت بالدؤوب في جمع ما لا تفهم، وقنعت بالجهل في حمل ما لا تعلم، فجمعوا الغث والسمين، والصحيح والسقيم، والحق والكذب في كتاب واحد، وربما في ورقة واحدة، ويدينون بالشيء وضده، ولا يعرفون ما في ذلك عليهم، قد شغلوا أنفسهم بالاستكثار عن التدبر والاعتبار، فألسنتهم تروي العلم وقلوبهم قد خلت من

(١) ينظر: واقع التعليم في البلاد العربية وتطلعات الجودة، علي سعيد المهنكر، من بحوث مؤتمر المعرفة العربي الأول في دبي ٢٠٠٧م، مجلة قطوف المعرفة، العدد الرابع، سنة ٢٠١٠م: ٧١.

(٢) ينظر: حول التربية والتعليم، عبد الكريم بكار، سلسلة المسلمون بين التحدي والمواجهة، الجزء الخامس، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٥م: ١٨٥ – ١٨٧.

الفهم "[١].

فهذا تقرير بأهمية الفهم مع الحفظ، لذلك قال رسول الله ﷺ: «نَضَّرَ الله امرَأً سَمِعَ منَّا حديثاً فحفِظَه حتى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حامِلِ فقهٍ إلى مَن هو أفقَهُ منه، ورُبَّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيهٍ»[٢].

فالحديث كما هو ظاهر يقرر أن الغاية من نقل الحديث وروايته هو إبلاغه من يفهمه ويحسن استخلاص المعاني منه.

قال الخطابي عن الحديث: "دليل على كراهة اختصار الحديث لمن ليس بالمتناهي في الفقه؛ لأنه إذا فعل ذلك، فقد قطع طريق الاستنباط والاستدلال لمعاني الكلام من طريق التفهم، وفي ضمنه وجوب التفقه، والحث على استنباط معاني الحديث، واستخراج المكنون من سره"[٣].

إن محاكاة الغرب بتقليص الحفظ، لا يتوافق مع بيئتنا العربية والإسلامية من وجوه كثيرة كما يراها الباحث، منها:

١. قدرة العربي على الحفظ، وهذا أمر عرف به العرب قبل الإسلام وبعده.
٢. إن من المهمات حفظ نصوص القرآن الكريم، فحفظه للقرآن الكريم يؤهله لأداء الصلوات، ويعينه على التخلق بأخلاقه والعمل بأحكامه، ناهيك عن أن الحفظ بالذات هو فضيلة يثاب عليها المسلم.
٣. إن حفظ الأحاديث النبوية يعني المسلم على التأسي برسول الله ﷺ وعلى أداء دوره في النصح استرشاداً بالأحاديث النبوية، ويدخل في هذا حفظ الأدعية والأذكار التي يرددها المسلم.
٤. إن حفظ القصائد العربية يعين الطالب على الحفاظ على لغته، وتقويم لسانه.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي، (ت٤٦٣هـ)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م: ٢/ ١١٣٤.

(٢) من حديث زيد بن ثابت ﷺ سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، (ت٢٧٥هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط، محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، بيروت، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م: كتاب العلم، باب فضل نشر العلم: ٥/ ٥٠١، رقم (٣٦٠٠)؛ سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي، (ت٢٧٩هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م: أبواب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع: ٥/ ٣٣، رقم (٢٦٥٦)، قال الترمذي: " وفي الباب عن عبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وجبير بن مطعم، وأبي الدرداء، وأنس: «حديث زيد بن ثابت حديث حسن".

(٣) معالم السنن شرح سنن أبي داود، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي، (ت٣٨٨هـ)، المطبعة العلمية، حلب، ١٣٥١هـ-١٩٣٢م: ٤/ ١٨٧.

وهذه الخصائص يكاد يتفرد بها المسلم من غيره من أصحاب الديانات الأخرى، إلا بعض المتخصصين الذي يحفظون بضعة نصوص من كتبهم المقدسة، ناهيك عن المعارف التي تستوجب الحفظ، مثل النظريات الهندسية، والقوانين الفيزيائية وغيرها التي يشترك فيها المسلم مع الغربي في وجوب تحصيلها.

يقول ابن الجوزي: "فإن الله عز وجل خصَّ أمتنا بحفظ القرآن والعلم، وقد كان من قبلنا يقرأون كتبهم من الصحف، ولا يقدرون على الحفظ"(١).

القول الثاني: إن الخلل في المادة التعليمية، إذ إن المواد العلمية عاجزة عن تلبية حاجات المجتمع، وأنها لم تعد متناسبة مع قدرات الطلبة. ومثال ذلك تركيز هذه المناهج على المختصرات والمتون، والتي تفتقر إلى إمكانية الانطلاق منها لتأسيس قاعدة علمية رصينة.

يسلط الطاهر بن عاشور الضوء على جانب من جوانب هذه المشكلة بقوله: "كثُرت التأليف واتَّسعت في خمس مائة سنة، وتعدَّدت النحل، ولم يهتد المسلمون أمام هذا التيار إلى تقييض طائفة من العلماء تختار كتباً من بين تلك الكثرة، فكان من هذه الكثرة أن ناءت بالقدر عن تحملها، ودعت حاجة إلى الأخذ من جميعها، فطفق كلّ أحد يختصر ويزيد وينقص على ما يبدو له"(٢).

ويقرر ابن خلدون "أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم، ذهب كثير من المتأخّرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون بها، ويدوّنون منها برنامجاً مختصراً في كلّ علم يشتمل على حصر مسائله وأدلّتها باختصار في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفنّ. وصار ذلك مخلّا بالبلاغة، وعسراً على الفهم. وربّما عمدوا إلى الكتب الأمّهات المطوّلة في الفنون للتّفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ... وهو فساد في التّعليم وفيه إخلال بالتّحصيل"(٣).

---

(١) الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، (ت٥٩٧هـ)، تحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط٢، ١٤١٢هـ: ٣١.

(٢) أليس الصبح بقريب، لمحمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي المالكي، (ت١٣٩٣هـ)، دار سحنون، تونس، ٢٠٠٦م: ١٤٥.

(٣) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لعبد الرحمن ابن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي، (ت٨٠٨هـ)، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م: ١/ ٧٣٣.

وبيَّن على ذلك بقوله: "لأنّ فيه تخليطاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعدّ لقبولها بعد، وهو من سوء التّعليم... ثمّ فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلّم بتتبّع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها، وصعوبة استخراج المسائل من بينها؛ لأنّ ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظ صالح عن الوقت. ثمّ بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التّعليم في تلك المختصرات إذا تمّ على سداده ولم تعقبه آفة، فهي ملكة قاصرة عن الملكات الّتي تحصل من الموضوعات البسيطة"[1].

والسؤال المطروح: هل هناك خلل في هذه المتون؟

والجواب عن ذلك كما يعرفه كلّ من درس المتون وخبرها، أن الخلل ليس في المتون، بل هي وسيلة فعالة لتثبيت المبادئ الأولية لأي علم من العلوم؛ ولكن الخلل في الاقتصار على هذه المتون، أو بعض شروحاتها المختصرة، وعدم الرجوع إلى المؤلفات الموسعة في هذا الباب.

فحفظ ألفية ابن مالك في النحو مثلاً، أو الأجرومية أمر مهم لحفظ القواعد النحوية، ولكن هذا لا يمنع من الرجوع إلى أمهات كتب النحو، بل ينبغي أن يكون حافزاً على ذلك، إذ إن غاية ما يبذله طالب العلم من جهد هو الرجوع إلى إحدى الشروحات المختصرة، والاكتفاء بها. وكذلك الأمر في المعارف الأخرى.

ويزيد الأمر تعقيداً حفظ المتون الشعرية التي تدفع الضرورات الشعرية والحفاظ على وزن الشعر وقافيته إلى إقحام عبارات لا توافق السياق، وترهق الطلبة في ربط هذه الألفاظ بالمعنى العام.

يقول ابن عاشور عن العلماء الذين نظموا الشعر التعليمي أو المتون الشعرية: "لما رأوا صعوبة حفظ الكلام المنثور مالوا إلى نظم هذه المعلومات"[2].

والشروحات الموضوعة على هذه المتون صارت هي الأخرى قيداً يحد من القدرة الذهنية لطالب العلم، فقد ظن "قوم رأوا أن هذه المختصرات لا يمكن الانتفاع بها؛ لأنها عبارة عن رموز وإشارات، فوضعوا عليها الشروح

(١) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب، الأشبيلي: ١/ ٧٣٣.

(٢) التعليم والإرشاد، محمد بدر الدين الحلبي، (ت١٣٦٢هـ)، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٦م: ٥٧.

والحواشي، واقبل أهل العلم عليها، وجلوا طلبهم هذا الفن منهم، فلا استفادوا ولا أفادوا"[١].

ونقد هذا المنهج ليس أمراً حادثاً، بل تنبه له القدماء، وحذروا منه، منهم ابن الجوزي الذي يقول: "كانت همم القدماء من العلماء عالية، تدل عليها تصانيفهم، التي هي زبدة أعمارهم؛ إلا أن أكثر تصانيفهم دثرت؛ لأن همم الطلاب ضعفت، فصاروا يطلبون المختصرات، ولا ينشطون للمطولات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها فدثرت الكتب، ولم تنسخ، فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب، التي قد تخلفت من المصنفات، فليكثر من المطالعة"[٢].

والحقيقة أن تراجع الدرس العلمي الشرعي لا يقتصر على هذين الأمرين، أعني بهما التلقين والمختصرات، بل هو امتداد لتراجع التعليم بجميع أنواعه، والعلم الشرعي من بينها، فالتعليم أياً كان العلم الذي يختص به، مرآة للمجتمع، فرقي المجتمع وتطوره يؤدي بالضرورة إلى رقي التعليم، كما هو الحال في الطب، والعمران، والدفاع، وغيرها من الأنشطة الحياتية والاجتماعية.

وخير دليل على ذلك أن أفضل ٥٠٠ جامعة في العالم في عام ٢٠١٠م ليس فيها سوى جامعتين عربيتين هما: جامعة الملك فهد للبترول والمعادن التي احتلت المركز ٤٨٠، وجامعة الملك سعود في المرتبة ٣٩١[٣].

(١) أليس الصبح بقريب: ٤٥.

(٢) صيد الخاطر، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، (ت٥٩٧هـ)، دار القلم، دمشق، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م: ٤٥٣.

(٣) ينظر: الموقع الالكتروني ويكبيديا
https://ar.wikipedia.org/wiki/

المبحث الثاني
قدرة الفكر الإسلامي على العلاج

ليس انجرافًا وراء العاطفة أو ضرورة تمليها الانتماء القول بقدرة الفكر الإسلامي على علاج المشاكل المطروحة، وتذليل الصعوبات القائمة، بل هو حقيقة أفرزها الواقع التاريخي عبر أكثر من ألف سنة من الإبداع الحضاري الإسلامي، نشر المسلمون فيه فكرهم وتراثهم الذي تأثر به العالم أجمع.

فإن قيل: إنه لا تخلو أمة من الأمم من أن تظهر فيها حضارة ما، فلم خصصت المسلمين بهذا؟

والجواب عن هذا: إنه لا شكّ قد ظهرت حضارات في شتى أنحاء العالم، بدءً من حضارة الصين مرورا بالهند وفارس، وتعريجاً على اليونان والرومان وانتهاء بحضارة الأزتيك في المكسيك.

ولكن الفرق بين هذه الحضارات وبين الحضارة الإسلامية من وجوه كثيرة ـ كما تبدو للباحث ـ أهمها:

١. حضارة الإسلام لم تكن قاصرة على العرب أو على المسلمين فقط، بل هي حضارة إنسانية عمّ خيرها جميع العالم، ليس عبر الانتقال الحضاري الشائع بسبب الاحتكاك، بل بزرع قيم جديدة، فهي ليست كحضارة الأزتيك التي لم تتجاوز المكسيك، أو كحضارة الرومان الذين سخروا العالم لخدمة مصالحهم.

٢. حضارة الإسلام حضارة مؤطرة بفكر عميق وهو الدين الإسلامي، فهي حضارة مرتبطة بدعوة في حين أن الحضارات الأخرى خلت من أي إطار فكري إلا الإطار العام المنصب على خدمة مصالحها الذاتية.

٣. بعض الحضارات أو بعض التيارات التي برزت في التاريخ واستطاعت أن تفرض نفسها على العالم، مارست التخريب وألحقت الدمار بالدول التي دخلتها مثل المغول والتتر، على خلاف الإسلام الذي نشر التحضر أينما حلَّ.

٤. الحضارة الإسلامية حضارة أصيلة، ودليل أصالتها تجدد مراكزها الحضارية، فلكما خفتت في مركز، ظهرت في مركز آخر أشدّ إشراقاً، فقد تنقلت الحضارة العربية الإسلامية من دمشق إلى بغداد إلى مصر إلى غرناطة، إلى إستانبول.

٥. الحضارة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة التي ارتبطت بدين على خلاف الديانتين اليهودية والنصرانية اللتين لم تنجحا حتى اليوم في إقامة دولة أو تأسيس حضارة تمثل هذا الدين.

وإن قيل: كيف سينجح الفكر الإسلامي في حل هذه المشكلات في حين أن

المشكلة تتعلق بتعليم العلوم الشرعية المرتبطة أساساً بالدين الإسلامي؟

وقبل توضيح هذا الأمر، فإن الموضوعية تقتضي الإشارة إلى أن هذه الطرائق لا تقتصر على العلوم الشرعية فقط، بل تمتد إلى العلوم التكميلية الأخرى، مثل العربية والتاريخ والجغرافية والرياضيات والمنطق؛ ولكن لما كان غالب العلوم السائدة هي العلوم الشرعية آنذاك، فقد ارتبطت هذه الطرائق بالعلم الشرعي.

كما أن تحصيل المعارف الأخرى صارت له منافذه الأكاديمية المعروفة، مثل الرياضيات والكيمياء والأدب وغيرها، في حين ما زال العلم الشرعي يحصل أحياناً بالطرائق التقليدية في الحلقات الخاصة التي يعقدها بعض المشايخ لطلبة العلم، ويلتحق بهذا أحياناً تدريس علوم العربية.

الأمر الآخر الواجب التوضيح أن طرائق التدريس لا تعبر عن جوهر الفكر الإسلامي، وإنما هي وسائل لبلوغه والنهل منه، وهي ليست مقيدة بطريقة معينة، أو وسيلة محددة.

فقد اختلف تلقي القرآن الكريم وحفظه في عهد رسول الله ﷺ عن طريقة تلقيه بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، يدلُّ على ذلك ما رواه أبو عبد الرحمن السلمي[1] رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "حَدثني الَّذين كَانُوا يقرئوننا: عُثْمَان بن عَفَّان، وَعبد الله بن مَسْعُود، وَأبي بن كَعْب رضي الله عنهم: أَن رَسُول الله ﷺ كَانَ يُقْرِئُهُمْ الْعشْر، فَلا يجاوزونها إِلَى عشر أُخْرَى حَتَّى يتعلموا مَا فِيهَا من الْعَمَل فتعلمنا الْقُرْآن وَالْعَمَل جَمِيعًا"[2].

فطرائق التدريس ليست محصورة بوسيلة مخصوصة، بل هي ترتبط أولاً وآخراً بالغاية منها، فهي من المتغيرات، وهي في الغالب تركز على الأصول الآتية:

أولاً: التدرج في التعليم:

وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، ويقرره العقل والمنطق والواقع، إذ يستحيل تحصيل العلوم دفعة واحدة، مهما أوتي الشخص من ملكة وقدرة، يقول الغزالي: "أن لا يخوض في فن من

(١) هو مقرئ الكوفة أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي، ولد في حياة النبيﷺ، ولأبيه صحبة، واليه انتهت القراءة تجويدا وضبطا، اخذ القراءة عن جماعة من الصحابة وأقرأ أربعين سنة مات سنة (٧٢هـ) وقيل سنة (٧٣ هـ). ينظر: معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار، لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، (ت٧٤٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م: ٢٧.

(٢) السبعة في القراءات، لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي، (ت٣٢٤هـ)، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٤٠٠هـ: ٦٩.

فنون العلم دفعة، بل يراعي الترتيب ويبتدئ بالأهم؛ فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً، فالحزم أن يأخذ من كلّ شيء أحسنه، ويكتفي منه بشمه، ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم، وهو علم الآخرة"[١].

بل إن بعض العلماء ذهب إلى استفراغ الوسع في إتقان أحد العلوم، ثم الانتقال منه إلى العلوم الأخرى، يقول ابن مكسويه: "وإذا تصورت قدر ما أومأنا إليه وفهمته، اطلعت على الآلة التي خلقت وندبت إليها، وعرفت الأفق الذي يتصل بأفقك، وتنقلك في مرتبة بعد مرتبة، وركوبك طبقا عن طبق، وحدث لك الإيمان الصحيح، وشهدت ما غاب عن غيرك من الدهماء، وبلغت أن تتدرج إلى العلوم الشريفة المكونة التي مبدؤها: تعلم المنطق؛ فإنه الآلة في تقويم الفهم والعقل الغريزي"[٢].

وإن كان هذا الأمر يبدو عسيراً في الوقت الراهن، إلا أن موضع الاستشهاد فيه هو التدرج في التعليم.

وقد صرَّح ابن خلدون بهذا التدرج في قوله: "اعلم أنّ تلقين العلوم للمتعلّمين إنّما يكون مفيداً إذا كان على التّدريج شيئاً فشيئاً، وقليلاً قليلاً، يلقى عليه أوّلاً مسائل من كلّ باب من الفنّ، هي أصول ذلك الباب. ويقرّب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوّة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه، حتّى ينتهي إلى آخر الفنّ"[٣].

ثانياً: الانتقال من الكليات إلى الجزئيات:

إن مقوله ابن خلدون توضح أهمية طلب الأصول من كلّ علم، قبل الانتقال إلى جزيئات هذا العلم وتفريعاته، إن النظرة الكلية تؤهل طالب العلم معرفة أغراض العلم ومراميه وأهدافه، و "أن هذه هي الأصول، ومن ضيعها حرم الوصول"[٤]، "وبواسطة الكليات تدْرك الجزئيات"[٥].

---

(١) إحياء علوم الدين، لحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي، (ت٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م: ١/ ٥٢.

(٢) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، (ت٤٢١هـ)، تحقيق محيي الدين الخطيب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، بلا تاريخ: ٨٠.

(٣) تاريخ ابن خلدون: ١/ ٧٣٤.

(٤) عدة المريد الصادق، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بزروق، (ت٨٩٩هـ)، تحقيق الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م: ١٩.

(٥) معارج القدس في مدراج معرفة النفس، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، (ت٥٠٥هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ١٩٧٥م: ٨٦.

ثالثاً: مراعاة القدرات المتفاوتة:

روعي هذا الأمر في الفكر الإسلامي مراعاة كبيرة، إذ يراعى التفاوت بين الأفراد في القدرات والقابليات، وهذا ما تعجز عنه طرائق التعليم التقليدية، إلا من حيث رسوب الطالب في صفه في حال عدم قدرته على مواكبة الآخرين.

وقد ظهر في الآونة الأخيرة في طرائق التعليم الحديثة ما يتوافق مع هذا التوجه، إذ سمح للطلبة المتفوقين من اجتياز مراحل أعلى إذا تمكن من النجاح، وهو ما يعرف اليوم بنظام العبور.

وقد ذكر أبو نعيم أن من علامات الحكمة: "ووعظهم على قدر عقولهم ليقوموا عنه بنفع حاضر"(١).

وقد أشار علي بن أبي طالب ﷺ إلى هذا المعنى بقوله: "حدثوا الناس، بما يعرفون أتحبون أن يكذب، الله ورسوله"(٢).

وروي عن عيسى عليه السلام قوله: "للحكمة أهل فإن وضعتها في غير أهلها ضيعت، وإن منعتها من أهلها ضيعت، كن كالطبيب يضع الدواء حيث ينبغي"(٣).

وقال عبد الله بن مسعود، ﷺ: "ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة"(٤).

وهذا يقتضي اختيار السهل البسيط في بداية التعلم، ما لم يكن ذهنه قابلاً وفهمه مستعداً لما هو أوعر(٥).

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، (ت٤٣٠هـ)، دار السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م: ٩/ ٣٦١.

(٢) صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، (ت٢٥٦هـ)، تحقيق محمد زهير ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، ١٤٢٢هـ: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا: ١/ ٣٧، رقم (١٢٧).

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، لمحمد بن مفلح بن محمد المقدسي الحنبلي، (ت٧٦٢هـ)، عالم الكتب، بيروت، لبنان، بلا تاريخ: ٢/ ١٨٠.

(٤) صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ: المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع: ١/ ١١، رقم (٥).

(٥) ينظر: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لمحمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، (ت٧٢٧هـ)، تحقيق: محمد بن مهدي العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م: ٦٠.

المبحث الثالث
معالجات مقترحة لتشكيل الذهنية العلمية

لقد وضع الفكر الإسلامي قواعد وركائز مهمة على طريق تشكيل الذهنية العلمية، وليس من العسير الوقوف عليها في بعض مصادر التشريع مثل الكتاب والسنة، إلا أن الأمر المهم هو في تطبيقها والعلم بها، ومن أبرز هذه القواعد العامة:

أولاً: تنمية القدرات العلمية:

لقد قرر علماء التربية أن مهارات العلم تنقسم على قسمين، هما: مهارات أساسية، ومهارات متكاملة، وأن مهارات عمليات العلم الأساسية كثيرة، هي: الملاحظة، والقياس، والتصنيف، والاستنباط، والاستقراء، والاستدلال، والتنبؤ، واستخدام الأرقام، واستخدام العلاقات الزمانية والمكانية، والاتصال، وهذه المهارات تعد أقل مستوى من المهارات المتكاملة، وأما عمليات العلم المتكاملة فتشمل تفسير البيانات، والتعريفات الإجرائية، وضبط المتغيرات، وفرض الفروض، والتجريب، والنمذجة، وهي تعتمد على ربط العديد من العمليات الأساسية للحصول على قدر أكبر في تشكيل الأدوات المستخدمة في حل المشكلات، لذلك فإن المهارات الأساسية تعد من مستلزمات المهارات المتكاملة، إذ إن المهارات المتكاملة تتطلب من الطلبة التفكير بمستوى عالٍ، والتأمل في أكثر من فكرة في آن واحد[1].

وتأصيل هذه الأنواع ليس عسيراً على الباحثين، إذ يمكنهم الوقوف على توجيهات إسلامية مهمة في هذا الصدد، من ذلك على سبيل المثال الملاحظة، التي تعد من المهارات الأساسية، وهي من حيث المفهوم التربوي: انتباه مقصود ومنظم للظواهر أو الأحداث أو الأمور بغية

---

(١) ينظر: أساليب تدريس العلوم، عايش زيتون، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط٢، ١٩٩٦م: ١١٢-١١٩ ؛ مهارات العمليات العلمية لدى طلبة المرحلة الإلزامية في الأردن في ضوء متغيرات تعليمية – تعلمية، إبراهيم رواشدة، وعبد الله خطابية، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم الإنسانية، العدد (١٤) السنة (٢) لسنة ١٩٩٨م:٢٤٩ – ٢٧٨؛ عمليات العلم الأساسية المتضمنة في الأنشطة العلمية لكتب العلوم للصفوف الأربعة الأولى من مرحلة التعليم الأساسي في سلطنة عمان، علي الشعيلي، وعبد الله الخطابية مجلة العلوم التربوية والنفسية، العدد (٤) لسنة ٢٠٠٢م: ١٥٥ – ١٥٩ ؛ دراسة مقارنة بين أداء طلبة المدارس الأساسية العامة وطلبة المدارس الخاصة في اكتساب مهارات عمليات العلم والميول العلمية والتحصيل في العلوم، قسيم الشناق، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٢م: ٣٦-٤٢.

اكتشاف أسبابها وقوانينها، وتتطلب تخطيطاً واعياً، وتحتاج إلى تدريبات عملية، كما تستلزم استخدام الحواس المختلفة أو الاستعانة بأدوات وأجهزة علمية معينة[١].

لا مبالغة في قولنا: إن الإسلام يقوم على الملاحظة، بل يعدها حجر الأساس في أي جهد فكري إنساني، يشهد على هذا العدد الكبير من الآيات القرآنية التي حثت على الملاحظة والانتفاع من النتائج المترتبة عليها.

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾[٢]، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[٣] و﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[٤]، و﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[٥].

فهذه الآيات لم تكتف بالأمر بالملاحظة، بل أمرت بتوظيف الحواس لهذا الغرض، فأمرت بتوظيف حاسة البصر عند الأمر بالنظر والرؤية، وأمر سبحانه أيضاً بتوظيف حاسة السمع، وهي أهم وسائل الاتصال بالخارج من أجل الوصول إلى الملاحظة الصحيحة.

وقد نهج الصحابة ﷺ هذا المنهج في حياتهم العامة، فقد سألت أم الدرداء: "أي عبادة أبي الدرداء[٦] كانت أكثر؟ قالت: التفكر، والاعتبار"[٧].

والملاحظة هنا وسيلة للانتقال إلى مستويات أكثر تطوراً في العمليات الذهنية، فالنظر يمهد إلى تركيب الأشياء في هذا الكون، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ

(١) ينظر: أساليب تدريس العلوم: ١٠٢.

(٢) سورة الغاشية: الآية ١٧.

(٣) سورة السجدة: الآية ٢٧.

(٤) سورة الأنبياء: من الآية ٤٤.

(٥) سورة النحل: الآية ٦٥.

(٦) هو عويمر بن عامر ويقال: عويمر بن قيس بن زيد، وقيل: عويمر بن ثعلبة بن عامر بن زيد بن قيس الأنصاري، أبو الدرداء، اشتهر بكنيته، أسلم يوم بدر وشهد أحداً، من قراء الصحابة وحكمائهم وعلمائهم وقضاتهم وفرسانهم، توفي سنة (٣٢هـ) بدمشق وقيل غيرها. ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، (ت٤٦٣هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ: ٣/ ١٢٢٧.

(٧) السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن عبد الرحمن النسائي، (ت٣٠٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه شعيب الأرناؤوط، قدم له عبد الله عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ -٢٠٠١م: كتاب المواعظ: ١٠/ ٤٠٤، رقم (١١٨٥٠).

سُطِحَتْ ﴾[١]، فالقرآن يحث على منهج العلم الذي يتلخص في النظر في الكون بالقياس والاستقراء أو بهما معاً للوصول إلى القوانين العامة[٢].

فالملاحظة إذن والانتفاع منها منهج إسلامي لا يقتصر على التعليم الشرعي أو التعليم على عمومه، بل ينبغي أن يكون من خصال المسلم، وأن ينتفع بما سخره له الله تعالى في هذا الكون، وأن ينتفع الإنسان بحواسه من باب أولى من الانتفاع بغيره.

ثانياً: الأصالة في التفكير:

الأصالة من مهارات التفكير المهمة، التي لها مكانة خاصة في التفكير الابتكاري الحديث، ويُقصد بالأصالة التجديد أو الانفراد بالأفكار، ويشير مصطلح الأصالة إلى قدرة الفرد على إنتاج استجابات أصيلة، أي: قليلة التكرار بالمفهوم الإحصائي داخل المجموعة التي ينتمي إليها، ولهذا، كلما قلت درجة شيوع الفكرة زادت درجة أصالتها[٣].

وتتمثل الأصالة بإجابات غير مألوفة في المنظمة أو المؤسسة أو الجماعة التي ينتمي إليها الفرد[٤].

فالأصالة هي تفكير مبدع يخالف النمط المألوف لتفكير الجماعة، ويكفي في إثبات ذلك أن النبيﷺ خالف أمته في عدم عبادة الأصنام، فإن قيل: إن هذا جرى بحفظ إلهي قبل النبوة، وبوحي إلهي بعدها.

نقول: إن جميع من أسلم من الصحابة ﷺ في مكة ـ على أقل تقدير ـ خالفوا ما ألفوه من دين الآباء والأجداد، وتوصوا بتفكير علمي حر سليم إلى الاهتداء إلى خالق هذا الكون، كما بين ذلك سبحانه في قوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾[٥].

(١)سورة الغاشية: الآيات ١٧ ـ ٢٠.

(٢) ينظر: الكون والإعجاز العلمي في القرآن، د. منصور حسب النبي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٦م: ٢٣.

(٣) ينظر: الموهبة والتفوق، خليل عبد الرحمن المعايطة، ومحمد عبد السلام البواليز، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ٢٠٠١م: ١٨٥.

(٤) ينظر: التفكير الإبداعي وعلاقته بالمكانة الاجتماعية (السوسيومترية) لدى طلبة المرحلة الإعدادية، يسرى حسن سلوم، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤ م: ٣٦.

(٥) سورة سبأ: الآية ٤٣.

وهذا التفكير المبدع الخلاق منهج إسلامي متبع عند جميع الأنبياء عليهم السلام، وقد تجلى هذا في جواب إبراهيم عليه السلام وهو يرد على النمرود ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾[1].

ولا يختلف اثنان من المسلمين العقلاء على أن القرآن الكريم ليس كتاب قصص وحكايات، ولا كتاب حكايات ومواعظ، بل أنزل ليعمل به المسلمون، ويتخلقون به، وأن ما فيه من قصص وأمثال إنما هي للاتعاظ والاعتبار والعمل بها، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[2].

ثالثاً: التفكير المبدع:

التفكير المبدع هو: "قدرة الفرد على إعطاء واكتشاف واستعمال الأفكار الجديدة والنادرة"[3].

أو هو: "القدرة على ابتكار حلول جديدة لمشكلة ما، وتتمثل هذه القدرة في ثلاثة مواقف مرتبة ترتيباً تصاعدياً وهي: التفسير والتنبؤ والابتكار"[4].

والقرآن الكريم حافل بالشواهد التي تشير إلى الإبداع سواء باللفظ كما في قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾[5]، أو بالمعنى، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[7].

والشواهد على الإبداع في السنة وفي أعمال الصحابة رضي الله عنهم كثيرة للغاية، مثل إبداع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الإدارة، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في القضاء، وخالد بن الوليد رضي الله عنه في فن الحرب.

وهذا زيد بن ثابت[8] رضي الله عنه أمره رسول الله ﷺ بتعلم السريانية فتعلمها في سبعة عشر يوماً[1].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

(٢) سورة الحشر: من الآية ٢١.

(٣) تطبيقات علمية في تنمية الفكر الإبداعي باستخدام نظرية الحل الابتكاري للمشكلات، صالح محمد أبو جادو، الشروق للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، ٢٠٠٤م: ٤٦٧.

(٤) المعجم الفلسفي، مراد وهبة، دار قباء الحديثة، القاهرة، ٢٠٠٧م: ٩.

(٥) سورة البقرة: الآية ١١٧.

(٦) سورة السجدة: الآية ٧.

(٧) سورة النمل: من الآية ٨٨.

(٨) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي أبو أبو خارجة وقيل: أبو سعيد وقيل: أبو عبد الرحمن، صحابي جليل، كان كاتب وحي رسول الله ﷺ وأفرض الصحابة ؛ من أصحاب الفتيا الراسخين في العلم مات بالمدينة سنة (٤٥هـ) وقيل غير ذلك. ينظر: الاستيعاب: ٢/ ٥٣٧.

وهذا مؤشر على نجاح المربي في تكليف الطلبة بما يوافق إمكاناتهم الذهنية، وتشكيلها بما يوافق قدراتهم العلمية، فضلاً عن القدرات الإبداعية الكامنة لدى عدد كبير من الصحابة﵃.

رابعاً: التفكير الحر:

المراد بالتفكير الحر هو التفكير المجرد من القيود التي تمنع انطلاقته، مثل المعتقدات المغلوطة والممارسات الخاطئة، والتفكير الحر أحد البوابات المهمة التي تتشكل منها الذهنية العلمية.

ومن اخطرها على سبيل الاستشهاد القناعات المسبقة، التي تمنع من التفاعل مع الآراء المبتكرة أو الأفكار الجدية الجيدة المطروحة، فتأبى الانصياع للحق اتباعاً لقناعات أو انتماءات مسبقة، وقد عاب القرآن الكريم هذه الفئة، كما عبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[٢].

وهذا الأسلوب هو محاولة يائسة للتنصل من حقيقة القرآن الكريم، وأنه وحي من الله تعالى، وليس إيحاءً ذاتياً نسبه النبي ﷺ لله، ووصف القرآن بأنه (أساطير الأولين) إشاعة باطلة قصد منها صرف الناس عن الإيمان به وبكونه منزلاً من عند الله سبحانه وتعالى.

وغير ذلك من قيود تمنع الفرد أو الجماعة من الاستجابة للحق أو للصواب، مما يؤدي إلى تحجر الفكر وتبلده.

وقد تكون الأسباب التي تمنع التفكير الحر أسباب ذاتية محضة تتعلق بثقافة الشخص وتكونيه الفكري، وقصوره عن إدراك الحقائق مثل غياب المقومات الثقافية والفكرية التي تؤهل المرء لفهم صحيح متساوق مع المضامين الصادقة والحقيقية، أو الجمود والسطحية، أو الفهم الكيفي والمزاجي.

وضيق الأفق، وسببه السطحية والجمود، إذ لا يتجاوز الإنسان مكانه ودائرته في التفكير، ولا

(١) مسند أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، (ت٢٤١هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، وآخرين، إشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م: ٣٥/ ٤٦٣، رقم (٢١٥٨٧). وهو حديث صحيح الإسناد. ينظر: تغليق التعليق على صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، تحقيق سعيد عبد الرحمن موسى القزقي، المكتب الإسلامي، بيروت، ودار عمار، الأردن، ١٤٠٥هـ: ٥/ ٣٠٨.

(٢) سورة الانعام: من الآية ٢٥.

يستطيع إدراك ما بعد كشعوره بما قرب، وقد يعسر عليه اجتياز الآفاق وتقدير الآثار، وفهم العواقب والنتائج والمستلزمات[١].

ومن عوائق العقل العلمي الانغلاق، والمراد به الصياغة الخاصة للعقلية الإنسانية على وفق نمط معين قد انغلق بما فيه من معلومات وإجراءات وجهالات ومرئيات، وحصل القناعة اليقينية باتجاهه وسيره في الحياة، فهو يتعلق بسد جميع منافذ الانفتاح، ويحذر من التمازج الثقافي والمعرفي، وقد يتعلق بالمغالاة في شخصية أو مذهبية أو حزبية أو تخصص علمي، ولا ريب في تأثير هذا العامل الرئيسي في بناء عقلية معينة باتجاه مخصوص[٢].

(١) ينظر: أزمة الفهم: أسبابها، مظاهرها، منافذ الخروج منها، لأبي زين حمزة بن فايع الفتحي، إمام وخطيب جامع الملك فهد بمحايل عسير، السعودية، ٢٠٠٤م: ٨.

(٢) ينظر: المرجع نفسه: ١٠.

الخاتمة

إن غرض هذا البحث هو بيان قدرة الفكر الإسلامي على تشكيل الذهنية العلمية.

أولاً ـ النتائج:

١. إن أبرز معوقات التعليم الشرعي تتعلقان بوسائل التعليمية، وبالمادة العلمية، وقد ثبت أن كلا الأمرين غير قطعي، وبالإمكان اتباع أي منهج أو أي أسلوب ما دام يحقق الأغراض المرجوة بكفاءة عالية.

٢. قدرة الفكر الإسلامي على معالجة المشاكل والمعوقات، وأن تلكؤ المناهج التعليمة أو تأخرها مرتبط بتأخر المجتمع.

٣. أهم الأسس التربوية التي تشكل الذهنية العلمية في الفكر الإسلامي هي التدرج، والسهولة، ومباشرة الكليات قبل الجزئيات.

٤. ركز الفكر الإسلامي على عدد من الوسائل التي تعد ركيزة في تكوين الذهنية العلمية، منها: الملاحظة، والأصالة في التفكير، وتنمية التفكير المبدع، وتنمية التفكير الحر.

ثانياً ـ التوصيات:

١. الفكر الإسلامي فكر حر غير جامد ولا مقيد إلا بالثوابت الشرعية، وهذا يقتضي العمل على تطوير وسائل التعليم بوصفها المدخل لتكوين الذهنية العلمية المتطورة.

٢. السعي لكشف القواعد العامة في التربية والتعليم وغيرها من مجالات الحياة من القرآن والسنة وتراث الأمة، وعدم الاكتفاء بانتظار النتائج التي يتوصل إليها الغرب لنعلن توافق القرآن الكريم أو السنة المطهرة معها.

٣. أن تركز المناهج الدراسية الدينية على الأبعاد الفكرية والمضامين الخلاقة والفهم الحي المتماشي مع الواقع وعدم الاقتصار على المناهج التقليدية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. إحياء علوم الدين، لحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي، (ت٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م.

٢. الآداب الشرعية والمنح المرعية، لمحمد بن مفلح بن محمد المقدسي الحنبلي، (ت٧٦٢هـ)، عالم الكتب، بيروت، لبنان، بلا تاريخ.

٣. أزمة الفهم أسبابها، مظاهرها، منافذ الخروج منها، لأبي زين حمزة بن فايع الفتحي، إمام وخطيب جامع الملك فهد بمحايل عسير، السعودية، ٢٠٠٤م.

٤. أساليب تدريس العلوم، عايش زيتون، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط٢، ١٩٩٦م.

٥. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، (ت٤٦٣هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ.

٦. أليس لصبح بقريب، لمحمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي المالكي، (ت١٣٩٣هـ)، دار سحنون، تونس، ٢٠٠٦م.

٧. تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لمحمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، (ت٧٢٧هـ)، تحقيق محمد بن مهدي العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٤٣٣هـ -٢٠١٢م.

٨. تطبيقات علمية في تنمية الفكر الإبداعي باستخدام نظرية الحل الابتكاري للمشكلات، صالح محمد أبو جادو، الشروق للنشر والتوزيع، عمان -الأردن، ٢٠٠٤م

٩. التعليم والإرشاد، محمد بدر الدين الحلبي، (ت١٣٦٢هـ)، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٤هـ -١٩٠٦م.

١٠. تغليق التعليق على صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، تحقيق سعيد عبد الرحمن موسى القزقي، المكتب الإسلامي، بيروت ودار عمار، الأردن، ١٤٠٥هـ.

١١. التفكير الإبداعي وعلاقته بالمكانة الاجتماعية (السوسيومترية) لدى طلبة المرحلة

الإعدادية، يسرى حسن سلوم، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤ م.

١٢. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، (ت٤٢١هـ)، تحقيق محيي الدين الخطيب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، بلا تاريخ.

١٣. جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي، (ت٤٦٣هـ)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

١٤. الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، (ت٥٩٧هـ)، تحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ط٢، ١٤١٢هـ.

١٥. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، (ت٤٣٠هـ)، دار السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

١٦. حول التربية والتعليم، عبد الكريم بكار، سلسة المسلمون بين التحدي والمواجهة، الجزء الخامس، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٥م.

١٧. دراسة مقارنة بين أداء طلبة المدارس الأساسية العامة وطلبة المدارس الخاصة في اكتساب مهارات عمليات العلم والميول العلمية والتحصيل في العلوم، قسيم الشناق، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٢م.

١٨. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لعبد الرحمن ابن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي، (ت٨٠٨هـ)، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٩. السبعة في القراءات، لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي، (ت٣٢٤هـ)، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٤٠٠هـ.

٢٠. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، (ت٢٧٥هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط، محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، بيروت، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٢١. سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي، (ت٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م

٢٢. السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن عبد الرحمن النسائي، (ت٣٠٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه شعيب الأرناؤوط، قدم له عبد الله عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٢٣. صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، (ت٢٥٦هـ)، تحقيق محمد زهير ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، ١٤٢٢هـ.

٢٤. صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.

٢٥. صيد الخاطر، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، (ت٥٩٧هـ)، دار القلم، دمشق، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٢٦. عدة المريد الصادق، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بزروق، (ت٨٩٩هـ)، تحقيق الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٢٧. عمليات العلم الأساسية المتضمنة في الأنشطة العلمية لكتب العلوم للصفوف الأربعة الأولى من مرحلة التعليم الأساسي في سلطنة عمان، علي الشعيلي، وعبد الله الخطايبة مجلة العلوم التربوية والنفسية، العدد (٤) لسنة ٢٠٠٢م.

٢٨. الكون والإعجاز العلمي في القرآن، د. منصور حسب النبي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٦م.

٢٩. مسند أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، (ت٢٤١هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، وآخرين، إشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٣٠. معارج القدس في مدراج معرفة النفس، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي،

(ت٥٠٥هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ١٩٧٥م.

٣١. معالم السنن شرح سنن أبي داود، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي، (ت٣٨٨هـ)، المطبعة العلمية، حلب، ١٣٥١هـ -١٩٣٢م.

٣٢. المعجم الفلسفي، مراد وهبة، دار قباء الحديثة، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٣٣. معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار، لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، (ت٧٤٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٤. مهارات العمليات العلمية لدى طلبة المرحلة الإلزامية في الأردن في ضوء متغيرات تعليمية -تعلمية، إبراهيم رواشدة، وعبد الله خطايبة، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم الإنسانية، العدد (١٤) السنة (٢) لسنة ١٩٩٨م.

٣٥. الموهبة والتفوق، خليل عبد الرحمن المعايطة، ومحمد عبد السلام البواليز، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ٢٠٠١م.

٣٦. واقع التعليم في البلاد العربية وتطلعات الجودة، علي سعيد المهنكر، من بحوث مؤتمر المعرفة العربي الأول في دبي ٢٠٠٧م، مجلة قطوف المعرفة، العدد الرابع، سنة ٢٠١٠م.